الامير حيدر فاضل

للاستاذ كريم ثابت

[تتوفى في اواخر يوليو الماضي المغفور له الامير حيدر فاضل الذي اشتهر بكتاباته ومنظوماته فخسر الادب بفقده نصيراً من اكبر انصاره واميراً من اعظم امرائه فعهدنا الى الاستاذ كريم ثابت الذي اشيع له معرفته بالكتابة عنه وعن آثاره فوافانا بهذا المقال الطلي]

الامير شاعراً وعالماً

يخطىء الذين يعتقدون ان الأمير حيدر فاضل لم يكن سوى شاعر ولكن لهم في خطائهم بعض العذر لأن الصحف ألفت نعته دائماً بالأمير الشاعر ، ومما لا ريب فيه انهُ رحمه الله كان شاعراً بروحه الى حدٍ بعيدٍ كما انهُ لا شك في ان آثاره المنظومة ترفعه الى مصاف الشعراء المجيدين ، غير ان الذي يجدر بالناس ان يعرفوه عن الأمير الراحل هو انه كان عالماً بقدر ما كان شاعراً ، وانه كان يجد في العلم لذة خاصة ، بل انه كان يجد فيه «روح» الشعر كما اعترف لي مرة في سياق حديث عن علاقة الشعر بالعلم ، وصارحني سموه عندئذٍ بأنه اذا كان احياناً يعالج بعض الموضوعات نظماً فذلك لأجل تمرين يده لأنه كان يعتقد ان النظم من أفضل الوسائل للاحتفاظ بسلامة الذوق في الكتابة ولاقتباس مقدرة حسن انتقاء الالفاظ وتكييف العبارات وإحكام صوغها في امتن صيغة يستطاع افراغها فيها . قال سموه « اني اعتقد ان الشاعر لا يكون شاعراً بالمعنى الصحيح الا اذا كان من المتبحرين في العلوم والفلسفة والا فهل يكفل ان يعمر شعره طويلاً في هذا العصر الذي يتبوأ فيه العلم والعرفان المقام الأول بين مناحي الفكر ؟ ثم اننا لو بحثنا في سير كبار الشعراء المتقدمين لتبين لنا ان اشهرهم كانوا علماء في العصور التي عاشوا فيها » . وهنا استشهد سموه بطائفة من الشعراء الخالدين وذكر بينهم «دانتي» قائلاً انه كان من اكبر علماء ايطاليا في عصره « وجويتي » الذي بحث في نظرية النشوء والارتقاء قبل ان يعالجها « دارون » العالم الانجليزي الجليل ثم سرد سموه اسماء بعض الشعراء العرب وقال في كلامه عنهم انه اذا كانت أشعار المتنبي لا تزال تردد الى اليوم فلأن ناظمها القدير طبعها بطابع متين من الحكمة والفلسفة

دراستهُ في اللغة الفرنسية

وكان الأمير حيدر يكتب وينظم باللغة الفرنسية . وقد كاشفني يوماً بأنه كان يود ان يتاح له ان يخص ذلك باللغة العربية ، وسكت لحظة ثم هز رأسه وقال : « ولكن لي في ذلك تزية ... ان الذين يكتبون باللغة العربية كثيرون جداً ، والذين يكتبون منهم باللغة الفرنسية قليلون جداً ، وليس بين الآخرين من يعنى بالكتابة في موضوعات شرقية الا عدد يسير ، لهذا فأتناول دائماً الموضوعات الشرقية وأنصر معظم ما انظمه على ترجمة مختارات عربية وبذلك أؤدي بعض ما عليَّ نحو لغتي وأبناء جلدتي » . وكان رحمه الله من انصار رأي القائل بأن المرء لا يستطيع أن يحذق لغتين مختلفتين في وقت واحد فانه قد يتعلم لغتين او ثلاث لغات او اكثر وقد يجيدها حديثاً وكتابة الا انه لن يحذقها كلها

وقد اخبرني سمو الامير انه تلقى دروسه في الكلية الفرنسية التركية في غلطة سراي بالاستانة ، وهي الكلية الممتازة التي انشأها الفرنسيون في عاصمة سلاطين آل عثمان تحقيقاً لامنية السلطان عبد العزيز ، فمكث فيها نحو عشر سنوات درس في خلالها علاوة على التركية والفرنسية جميع فروع العلوم الرياضية والطبية والجغرافية والتاريخية ، وهنا ذكر سموه ان التلاميذ النجباء كانوا يتخرجون في تلك الكلية وقد ثقفوا عقولهم بقسط وافر من المعارف والعلوم ، وعلى اثر ذلك زار سموه مدينة باريس زيارات متواصلة في اربع سنوات متعاقبة ، وكان في ذلك الاثناء قد أنس من نفسه ميلاً الى قرض الشعر فكف على نظمه بشغف وعناية

وقد تجلت سعة اطلاع الامير حيدر في آداب اللغة الفرنسية بأجلى مظاهرها في الخطبة النفيسة التي خطبها في محفل « صولت » في اوائل السنة المنصرمة للترحيب بالسيو جورج دوهامل الكاتب والروائي الفرنسي المعروف فانهُ تكلم في تلك الخطبة عن كثيرين من الادباء الفرنسيين المتقدمين والمعاصرين بما ينم على المجهود العظيم الذي بذله لدرس كتابات اولئك الادباء لكي يحيط بها من جميع نواحيها ، وقد كانت الخطبة التي نحن في صددها هنا آخر خطبة لسموه خطبها في مجمع حافل

اشتهاره ونشاطه

وكان الفقيد الكريم يجاهر بان دراسة المدرسة لا تجدي نفعاً ولا تترك في حياة المرء اثراً الا اذا ظل بعد انتهائه منها مكبًّا على الدرس والتحصيل فتصبح سنو الدراسة عندئذٍ بمثابة

طريق ممهد يسلكه المرء للوصول الى غايته في معرفة الحقيقة والرجال . قال سقوه « واعني بذلك الحقيقة العلمية والاجتماعية والرجال الذين يستحقون أن تعيرهم عنايتك وموفتك .... انا لا يهمني ما يقوله زيد أو ما يفعله عمرو .... هذا لا يهم .... وانما اهتم برجل كفكتور هوجو مثلاً فادرس اخلاقهُ ونفسيتهُ وسبلغ تأثيرها مع بيئته في كتابته .... ادرس العلوم لمعرفة الحقيقة وأي رجل عاقل لا يشعر بلذة البحث عن الحقيقة والوصول الى معرفتها وازاحة النقاب عنها ؟ »

وقد كان الامير حيدر يشتغل في شبابه ليلاً ونهاراً تارة بالمطالعة والبحث والاستقصاء وطوراً بالكتابة والنظم وتدوين المعلومات والمفكرات ، غير انهُ اضطر في السنين الاخيرة الى الانقطاع عن العمل ليلاً مراعاة لحالة عينيه فكان يستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً وبعد ما يتناول فطوراً خفيفاً يدخل مكتبهُ ولا يغادره الاَّ عند ما يأذن موعد الغداء فيأكل اكلاً خفيفاً ايضاً ثم يعود في الساعة الثالثة الى مكتبه ويستأنف العمل فيه حتى الساعة الخامسة فيخرج للنزهة والرياضة ترويحاً للنفس وتجديداً للنشاط

وقد ادركتهُ المنية وهو يشتغل باختيار طائفة كبيرة من منظوماته التي لم تنشر في ديوانه المطبوع لينشرها في ديوان جديد كان ينوي اصداره في اقرب فرصة مستطاعة ، ولكن الذي كان يشغله اكثر من ذلك هو التاريخ الحافل الكبير الذي كان يعده عن مصر في عصر جده العظيم محمد علي باشا وكان قد جمع له الجانب الاوفر من الوثائق والمستندات التي يحتاج اليها في بحثه وعمله وكان يمني النفس بانهُ سيجيء سفراً مكتوباً على النمط الحديث وكان يسرد الحوادث مع مقدماتها ومسبباتها ونتائجها ويحلل جزئياتها وكلياتها والامور التي تفرعت عليها تحليلاً دقيقاً مستفيضاً ولكن الموت عاجله قبل ان يخرج هذا الاثر العلمي النفيس الى حيز الوجود

شعر الامير حيدر

وأهم ما يستوقف النظر في شعر الامير حيدر فاضل شدة اعتزازه بآبائه وحبه العظيم لأفراد أسرته ومن أروع قصائده قصيدة عصماء ضمنها خلاصة حكاية قصها عليه مراد باشا الكبير عن جده محمد علي باشا وكان قد سمعها منهُ وفحوى هذه الحكاية ان محمد علي باشا جمع اعوانهُ يوماً وروى لهم انهُ رأى في منامه انهُ صعد الى السماء ومثل امام الله تعالى وما هي الاَّ دقائق قليلة حتى انضم اليه الملك اسكندر المقدوني ووقف بجانبه فالتفت الباري الى الاسكندر وقال له اضغط على يد محمد علي بكل قواك لتتبين مبلغ بأس كل منكما

فامسك المقدوني يد محمد علي وضغط عليها ضغطاً شديداً فلم يحرك وابي مصر ساكناً وظل رابطاً في مكانه ثابتاً صامتاً. فالتفت اليه الله تعالى وقال له « والآن تقدم انت يا محمد علي بدورك واضغط على يد غريمك بكل قوتك » فانقاد للامر وفي الحال اصفر وجه المقدوني ولم يقو على تحمل الالم . هنا قال محمد علي لاعوانه « وفي تلك اللحظة استيقظت من نومي ولكن لا تظنوا ان في هذا الحلم ما يبعث على الاستغراب فان هذا المقدوني كان ابن ملك وقد آن صولجان الملك الى يده الضعيفة عن طريق الارث أما أنا فصنعت الصولجان بيدي »

ومن قصائد سموه الرائعة القصيدة الطويلة التي بسط فيها وصاياه لكريمته الاميرة فاطمة الزهراء وقد اوصاها فيها بأن تتخذ لنفسها من القرآن الكريم نبراساً في هذه الحياة ، وان تجتهد بالمطالعة فيه كلما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، واوصاها في الوقت عينه بنبذ التعصب والغلو الديني والابتعاد عن مناوأة الاديان الاخرى أو الطعن فيها ، واوصاها فوق ذلك باطاعة والدتها مذكراً اياها بما تحملته من اوجاع وآلام في سبيلها طالباً اليها ان تحلها من حبها المحل اللائق بها . ثم اوصاها بزيارة مدافن آبائها واجدادها من وقت الى آخر لتستمد من نبوغهم وحياً ولتقرأ في وفاتهم تاريخاً حافلاً بجلائل الاعمال . وان من يطلع على وصاياه الاخرى التي وردت في هذه القصيدة يشهد له بان آراءه في التربية تضاهي آراء اكبر المربين في هذا الصدد . ومن ذلك قوله لكريمته عند اشارته الى الطريقة التي ينبغي ان تربي اولادها عليها انهُ اذا عملوا عملاً يستحق اللوم ففي استطاعتها ان توبخهم عليه وتؤنبهم بدون ان تضربهم لاعتقاد سموه ان الضرب لم يكن في وقتها علاجاً للناس بل هو يرى ان الحلم يقوّم الاخلاق اكثر من وسائل الشدة والتذرع بطرق العنف

وكان الراحل الكريم لا يدع عيد جلالة الملك أو عيد جلوسه يمر بدون ان يهنئه به بقصيدة رقيقة الابيات نبيلة المعاني يرفعها اليه ابتهاجاً بتلك المناسبة ولسموه قصائد كثيرة في تهنئة ابناء وبنات عمه في احوال ومناسبات شتى ، كما ان له قصائد منوعة في وصف آثار مصر الخالدة منها قصيدته في ابي الهول وموشحه عن وادي الملوك وتحيته لنهر النيل ومناجاته لاهرام الجيزة الى غير ذلك من القصائد التي تجلت فيها وطنيته الصادقة بأجلى مظاهرها ، وقد قال مرة وهو يصف لي حبه لمصر « انا نحب امهاتنا لانهن اطعمنا في ابان لعومة اظفارنا فكيف لا نحب وطناً وهو الذي نستظل بسمائه ونشرب من مائه ونتغذى بثمار ارضه »

كريم ثابت

قليل من الناس يدركون الفرق بين الرعن « ضربة الشمس » « وضربة الحرارة » ولماذا طول الاحتجاب عن الشمس (كاحتجاب رواد القطبين) يجعل العيون زرقاء . لماذا تضعف قوة الاشعة الكيماوية في نور الشمس كلما هبطنا الى مستوى سطح البحر ؟ ولماذا يفوق نور الشمس الطبيعي الذي لم تحجب منهُ بعض اشعته نورَ المصابيح الصناعية التي تصنع خاصة لشعّ الاشعة الصحية ؟

لقد تعلمنا في كتب العلم المختلفة ان النباتات تعيش وتنمو بتعرضها لنور الشمس . وان النور الواصل اليها في الصيف افعل في نموّها من النور الذي يصلها في سائر ساعات النهار. لقد تعلمنا ان نور الشمس يقتل الجراثيم وانهُ يزيد ما في الدم من محتوياته الحيوية والفصفورية والحديدية وانهُ يزيد مقاومة الانسان للمرض باكثار كريات الدم البيضاء في دمه . لقد تعلمنا كلّ هذا ولكن ما اكثر المسائل الغامضة التي لاتزال حتى الآن رهن البحث والتحقيق

نريد ان نعرف — في مقدمة ما نريده — الحقائق التي تقوم عليها هذه العلاقة الحيوية بين الاشعة والحياة — حياة الحيوان والنبات على السواء. كيف تحدث هذه الامواج تغيراً في كيمياء الدم ؟ ما فعلها في شفاء امراض الجلد والعظام والاسنان ؟ كيف تمنع العدوى وما هو اثرها في العضلات والاعصاب والغدد ؟ كيف نستطيع ان نستخدم الامواج المختلفة للاغراض المختلفة ؟

الأشعة الحيوية

من الحقائق الجديدة التي كُشف عنها ، وجه الشبه بين «الكلوروفل» المادة الخضراء في النباتات و « الهماتين » المادة الحمراء في الدم. فالأولى مادة معدنية تحتوي على مقدار من المغنيسيوم والثانية من مركبات الحديد . فاذا حجبت نور الشمس عن النباتات اصفرت وضعفت وصارت عرضة للاصابة بالأمراض الفاتكة . وقد دلّت المباحث العلمية المتسعة النطاق في أنواع مختلفة من النباتات على اثر الأشعة التي فوق البنفسجي وغيرها من اشعة الشمس في بناء الأجسام النباتية وتقويتها . ففي كلية ماستشوستس الزراعية اخذت طائفة